نفسية العامل

بين الاطمئنان والقلق

يعمل الفلاح فى مزرعته بكد يده، ويبذل فى تسوية العمل و إنتاجه عافية جسمه، فهو إذن عامل ينطبق عليه من موضوعنا هذا ما ينطبق على عامل المصنع وسواه .

وما دام الفلاح والعامل كلاهما سيكون فى مكان واحد من هذا الموضوع فسيكون تعبيرنا باسم أحدهما " العامل " تعبيرا عنهما معا .

و بعد ذلك فقد فرغنا من التسليم بالحقيقة الأولى فى شأنهما، وهى أن كليهما محتاج الى الاصلاح المنتج فى مظاهر حياته المادية ، فالقرية وأوضاعها ومسالكها ودورها ، والماء الذى يشربه أهلها ، وكذلك مساكن العمال وما يتصل بها من ذلك ، تحتاج أن تنشأ من جديد وعلى التدريج نشأة تصبح بها بيوت أحياء لا مقابر أموات ، وتنظيم العمل فى مدى ساعاته وفى حساب أجره وفيما يقوم عليه من علاقة بين العامل وصاحب العمل يحتاج الى أن يوضع فى ميزان العدل وضعا لاحيف فيه ولا إرهاق، والتغذية الكافية والصحة الموفورة يحتاج فى تيسرهما لهؤلاء الذين يعيشون فى قرية الريف وفى الحى القائم على أطراف المدينة الى عناية يعلم مبلغها من يعلمون أن هذا الذى يشق الأرض بفأسه ، وهذا الذى يبدع الصنعة بأداته ، كلاهما من الأمة بمنزلة العصب فى الجسم والدم فى العروق .

وقد توفرنا على العناية بكل ذلك، وذهبت هذه العناية فى مختلف وجوهها مذاهب الجد والنشاط ، وانتهينا بعد التفكير الى مشارع التنفيذ ليجدوا كفاية حياتهم من الغذاء والدثار ، ولتتهيأ لهم أسباب النجاة من سوء التغذية والملبس والمأوى وما وراء ذلك من تهدم الأجسام وضياع العافية .

ولكن الى جانب هذه الحقيقة التى أدركناها وشرعنا نعمل لتنفيذها حقيقة أكبر منها لا نظن أنها وقعت لأكثرنا فى حساب ، وهذه الحقيقة هى الحالة النفسية التى تستحوذ على قلب العامل والفلاح فى هذه الأيام والتى نخشى يوم ننصرف عن تمام الاصلاح المادى مطمئنين الى نتيجته أن يعترضنا منها ما يجعل هذا الاصلاح قليل الجدوى ضئيل الفائدة .

ولأجل أن تصبح المسألة قريبة من التصور نفرض أننا أنشأنا للفلاح قرية جمعت بحسن تنظيمها كل ما يحتاج اليه فى حياته الريفية من أسباب الصحة وراحة البال، ثم نفرض أننا نرى أخانا الفلاح وهو يسير على جسر الترعة فى يوم شديد الحر عائدا من حقله الى قريته، فهل نراه اذا اشتد به العطش أو ضايقه الحر لا يميل الى الترعة فيعب منها ليطفئ عطشه بما فيها من أقذار الماء ولا يلقى نفسه بين لجتها ليبترد بمائها الملوث بالجراثيم ؟ أو نراه يصبر قليلا حتى يصل الى القرية حيث ينتظره ما ؤها النقى وحمامها النظيف ؟

وكما نفرض هذه الصورة من الواقع فى شأن الفلاح نفرض صورة أخرى من الواقع فى شأن العامل، فهب أن أخانا العامل استوفى غاية الانصاف فى تقدير الأجر وتحديد ساعات العمل وضمان التعويض لما يصيبه أثناء العمل من أخطاره ، وهذه كلها حقوق طبيعية واجبة الأداء والاحترام ، ثم هب أننا أردنا أن نراقبه بعد أن تستقيم له هذه الحقوق ، فماذا نراه يفعل فيما يزيد من فضلة الزمن على ساعات العمل ؟ وكيف نجده ينفق الأجر الذى لم ينله الا بعد أن سالت عليه عافيته قطرة فقطرة ؟ هل ينفق فترة الزمن فى ثمرة ينتجها ، أو فى خير يؤديه ، أو فى كلمة طيبة يستفيدها؟ وهل يصون اجره عن الضياع فيما يشبع أحشاء الشيطان وأحشاء أهله وأبنائه خاوية ؟ وهل يضمن أسلوب حياته البيتية المألوفة أن يستمتع فى مسكنه الصحى الجديد المنظم بحياة لا تتعثر فى مساوئ هذا الأسلوب المألوف ؟

ومع ذلك فهذا أيضا جانب مادى من جوانب حياته وإن كان مرجعه الى الحالة النفسية أو إلى الطبع الثابت والعادة المستقرة ، أما جوانب الحالة النفسية المحضة فحقها من العناية والالتفات على قدر ما يؤدى اليه نسيانها من الخطر وسوء المصير .

لم يعد العامل المصرى محجوبا عن الدنيا ، فهو يقرأ ويسمع ويدرك مما يسمع ويقرأ أن مدى الحياة أبعد من أن تحده فى مصر حدود المكان والزمان ، وقد أصبح يتحدث فى الشئون السياسية العامة ويزعم أنه يفهمها وأن له فيها رأيا يؤمن به إيمانه بصحة فهمه ، وأصبح يتحدث فى شئون العمل والعمال وفيما يعترى هذه الشئون من مذاهب وآراء ، وأصبح يتخذ من حركات العمال ومذاهبهم فى بلاد الغرب مرآة يرى فيها نفسه ومصيره ويقيس عليها آماله ويحدد بها اتجاهاته ، ولسنا نجهل أن نطاق تفكيره فى هذه النواحى لا يزال ضيقا ، وأن

عامل الفلاحة فى الريف أقل التفاتا اليها وأضعف عناية بها من عامل المصنع فى المدينة ، ولكنها موجودة على كل حال وجودا لم تعد معه بذرة جافة ، بل لم تعد بذرة يمنعها توهم عدم صلاحية التربة من أن تنبت وتنمو وتصير شجرة لها جذع ضخم وفروع متكاثرة ، فهذه البذرة الموجودة فعلا هى التى نريد أن تعالجها عناية المصلحين لا على أن نردها عدما — فذلك فيما نظن مطلب عسير المنال — بل على أن نحيطها من أسباب الوقاية بما يعدل بها عن طريق الخطر .

وقد تسأل عن هذه الوقاية ماذا هى وكيف تكون أسبابها ؟ فنقول : كان العامل المصرى يحمل بين جنبيه من إيمان قلبه وطمأنينة نفسه ضمان القنوع والهدوء ، فلما أوشك أن يفقد هذا الضمان أوشك أن يغتال هدوءه وقنوعه خداع ما يرى ويسمع .

ترجع النهضة الحديثة فى مصر إلى همة محمد على الكبير ، ولا يرتاب أحد فى أن سواعد العمال وجهود العمل فى الزراعة والصناعات كانت عماد هذه النهضة فى فجرها الصادق ، وقبل ذلك كانت جهود العمل وسواعد العمال هى التى رفعت شوامخ الآثار فى عصر المماليك وفى العصور التى سبقته مما لا تزال تنطق به العبائر الضخمة والمشاهد الخالدة ، وكان أولئك الذين خلدوا بأيديهم هذا المجد العظيم عمالا وصناعا مصريين هم السلف الطيب للصناع والعمال المصريين فى هذه الأيام ، ونحن لم نزل نرى فى هذه الآثار أمثلة عجيبة للجهود الشاقة المضنية التى رفع بها أبطال العمل فى تلك العصور أركان هذا المجد ، وقد كانوا مع ذلك قانعين من الإيمان وطمأنينة القلب ورجاء المثوبة المنتظرة فى الدار الآخرة بما يملأ نفوسهم سلوة وعزاء ، لأنهم كانوا يستمدون من هذا العزاء وهذه السلوة صبرا لا ينضب معينه وقوة لا ينتهى جديدها .

ولكن عمالنا فى هذه الأيام أصبحوا وحظهم من منبع العزاء والسلوة ضائع أو موشك أن يضيع ، وبذلك صاروا عرضة لما يتراءى لهم فى الآفاق البعيدة من ختل المذاهب البراقة والآراء الجامحة ، ولم يعودوا يتذكرون أن كل شىء فى هذه الحياة نسبى ، وأن الله الذى خلقهم للعمل وشرفه والصناعات ومجدها ، أبى إلا أن تكون لهم مناعة أجسام يكفيهم معها الثوب أو الثوبان حين لا يكفيان أصحاب الأجسام المترفة ممن يكدون فى الحياة العامة بالعقول والقلوب لا بالسواعد والآلات ، كما أبى إلا ان تكون لهم معدات تهضم العدس والبصل ونحوهما من الأغذية التى تجل فائدتها وترخص قيمتها مهما انقبضت عنها شهوة النفس حين لا تلتهم معدات المترفين غير الأغذية التى تقل فائدتها وتغلو قيمتها ولا تنقبض عنها شهوة الآكلين .

أما سبب هـذه الحالة الطارئة التى تبدلت بها نفسية العامل المصرى ، فهو أن محيط الحضارة العصرية دلس عليه حقائق الحياة وغشه فيما تقوم به علاقات الطوائف بعضها ببعض من روابط وفروق ، وفيما تقتضيه هذه الفروق والروابط من دفع وجذب وتقارب وتباعد . وقد كان من الخير أن يبقى على سجيته الهادئة المطمئنة ليبقى حظه من هدوء النفس موافقا لهذه الطبيعة المصرية التى تمتاز بالرزانة والهدوء ، ولكن هذا الخير الذى كان واجبا أن يبقى وأن يصان لم يلبث أن عصفت به هـذه الريح نفسها التى عصفت بإيمان القلوب فسلبتها راحتها الكبرى ، وسدت على النفوس سبيل الرضا فحرمتها نعمة الاطمئنان ، وملأت الصدور حرجا وضيقا فملأت الجوانح تبرما وقنوطا ، على أن هذه الحالة النفسية لاتزال غير مستعصية ولا معضلة ، فاذا لم نتداركها منذ الآن بوسائل العلاج وأسباب الوقاية فقد لا نأمن أن تصبح للعمل والعمال فى مصر مشكلات يحار فيها رجالنا المصلحون حيرة أمثالهم بمثيلاتها فى بلاد الغرب .

ومع ذلك فالشأن مختلف عندنا وعندهم ، فهناك لانرى فى ميادين الكفاح غير المادة يحيط طغيانها بتفكير العقول وهوى القلوب وعمل الأيدى وخطوات الاقدام ، حتى لم يبق للمعانى الروحية فى هذه الميادين سلطان مطاع ولا أثر محمود ، ومن هذه الناحية يستطيع دعاة الاصلاح الغربيون أن يجدوا لأنفسهم عذرا مقبولا ، ولكنهم مع هذا العذر الذى يسعفهم به واقع الحياة لم يكفوا عن محاولة العلاج رغم مايعلمونه من قوة التيار وشدة انحداره عسى أن تلتوى طريقه ويخف اندفاعه .

غير أن المسألة لاتزال عندنا كما قلنا فى صدر هذا الكلام بذرة جافة ، فعلينا أن ننظر هل تجد هذه البذرة تربة صالحة تنمو فيها ؟ ودل بلغ بنا ضغط الحياة مبلغا تنفتق به هذه البذرة عن العنصر الذى تنبت منه ؟ وهل فى مصادر حياتنا الطبيعية من البخل والجفاء ما تقوم به المغالبة على العيش مقام المعارك بين المتقاتلين ؟

كنا نقول قبل اليوم إن بلادنا زراعية ، فمشكلات العمل والعمال مأمونة فيها ، وكان هذا القول صحيحا على وجهه يوم كانت النهضة الصناعية والعملية لا تزال سرا من أسرار الغيب ، فاذا صح أن هذه البذرة الجافة لاتجد لها تربة صالحة بين محيط العمل فى فلاحة الارض وزرعها فقد يصح أن تجد هذه التربة فى محيط النهضة الصناعية وفيما تستكمله حاجاتنا الحربية والاقتصادية لهذه النهضة من الامتداد والسعة وترامى الأطراف .

والواقع أن مصادر الحياة فى مصر لا تعرف البخل والجفاء ، ولكن الواقع أيضا أن كرم هذه المصادر ولينها أصبحا مدخرين لمجد الدولة وللمستقبل العظيم الذى نتطلع إليه ، أى للأعباء الثقيلة والتكاليف البالغة التى ألقتها على عاتق البلاد حاجتنا الحربية والاقتصادية .

فبأى شعور إذن نريد أن يقبل العامل المصرى على هذا المستقبل الذى طالعتنا مقدماته؟ هل نرى أن يقبل عليه بشعور النفس المادية و إحساس الضمير الجاحد فيصبح فريسة للتبرم والقنوط وتصبح الأمة معتلة منه بما يعتل به العرق النابض والعضو المتحرك ؟ أو نرى أن يقبل عليه باحساس الضمير المؤمن وشعور النفس المطمئنة فيصبح سعيدا بنفسه وعمله وتصبح الأمة صحيحة منه بما تصح به النفوس والأبدان ؟

إن أوجب ما يجب من حق العامل أن نوفر له أسباب الأمن والسلامة فى نفسه وصحته وعيشه، وأن نمكنه من أن يوفر لأهله وأبنائه حاجتهم من هذا الأمن وهذه السلامة ، ولكن أكبر من ذلك وجوبا أن توفر الأمة لنفسها فى شخصه سلامة الاتجاه وأمن السبيل ، فتعيد اليه صدق إيمانه وترده الى ما فى الإيمان من طمأنينة القلب وعزاء النفس ومقابلة الشدائد بالصبر والرضا وصدق اليقين .

و بعد ، فلا بد لنا أن نلاحظ مسألة اقتضاها ، فيما نعتقد، تلهف المصلحين على إسعاد العمال بأقصى ما يتصورونه من وسائل الإسعاد ، وهذه المسألة هى أن الدعاة القائمين الى جانب العمال مقام الانتصار لهم لا يقتصرون فى المبالغة ولا تسلم أصواتهم من افتراض الآمال التى تتفتح لها القلوب وتتعلق بها الأوهام فى حين أن الجهود قد تقصر عنها وأن الزمن قد لا يسمح بها .

ولا شبهة أن المطامع تمتد فى النفوس وتستبد بها بقدر ما يمتد لها من حبال الأمل على ألسنة الدعاة والمفكرين ، فاذا وقفت عوائق الزمن فى الطريق أو نفد ما فى وسع الطاقة قبل الوصول الى الغاية المشتهاة كان رد الفعل بذلك غير مأمون العاقبة ، فقد تتوهم النفوس حينئذ أنها أصيبت بالحرمان من غير حق فيتسلط عليها القلق وسوء الظن وتصبح مستعدة لقبول الدعوات الهدامة والآراء المظلمة .

ولهذا يحسن بكل من يدعوه الاخلاص لهذه الأمة والحرص على مصلحة العمال الى العمل فى هذا الميدان أن يكون رفيقا فى دعوته وتفكيره ، وألا ينسى مستقبل العمال كلما فكر فى حاضرهم .

م . ه